مائة سنة على جوته

لما توفي جوته في ٢٢ مارس سنة ١٨٣٢ التفت كارليل الى مجموعة مؤلفاته وهي نحو مائة وخمسين مجلداً وقال «لم يحن الوقت بعد لوزن هذه المجلدات واصدار حكم فيها . قد يصح هذا مستطاعاً بعد مائة سنة » !

ولكي يفهم القارىء مؤلفات جوته وفلسفتهُ وأصول فنهِ لا بدَّ له من الالمام بعصره الحافل بالحوادث الجسام . فقد كان جوته معاصراً لحرب استقلال اميركا ، وللثورة الفرنسية ، ولنبوليون جمهوريًّا وامبراطوراً ، ولعودة البوربون وسقوطهم ، وللفتن وحوادث الشغب التي وقعت في انكلترا قبل الاصلاح العظيم (١٨٣٢) . لما ولد سنة ١٧٤٩ كان الدكتور صمرئيل جنصن قد شرع يجمع معجمتهُ الانكليزية العظيمة ، وكان غراي الشاعر الانكليزي على وشك نشر مرثاتهِ المشهورة في الادب الانكليزي . ولما مات سنة ١٨٣٢ كان نجم فكتور هوغو قد بلغ السمت بعيد اخراج روايتهِ هرناني — وبين الولادة والموت مرَّت سير بيتهوفن وموزار وكيتس وشلي وبيرون وغيرهم

مدارس في الادب سادت في اثناء حياتهِ ودالت ، ودول في السياسة اشرق نجمها وأفل . وجوته من حداثتهِ الى يوم مماتهِ لم ينزوِ عن الحياة في مكتبهِ ، ولم يصدف عن شؤونها في ذهول الشاعر وشرود الفيلسوف ، بل كان يرقبها مستوعباً مجاريها ، وكثيراً ما اشترك في توجيه متدرَّاتها . ولعله اذا استثنينا ، ليوناردو دفنشي ، اشمل العقريين لنواحي الحياة . «ان شكسبير اعظم منهُ شاعراً ، ولكن جوته يجمع في شخصهِ نصف شكسبير وكل فرنسيس با كون وغيرهما من مختلف الرجال والكتَّاب » . كان متفوقاً كشاعر غنائي متفوقاً كشاعر درامي ، اميراً من امراء النثر ، عالماً — اكتشف عظمة ما بين الفكين واشتغل بالجيولوجيا فاشتهر فيها ، وكتب في تطوُّر النباتات ، واخرج نظرية لتعليل الضوء واللون — وكان سياسيًّا موفقاً تقلد في بلاط فيمار وزارة الحربية والمعادن والمالية والفنون في آن واحد . وقد قيل انهُ لما رأى القنور العام الذي بدا في استقبال احد مجلداتهِ في التاريخ الطبيعي قال : لا افخر بما فعلتهُ كشاعر . ما اكثر الشعراء الكبار في عصري وفي العصور السابقة . اما ان اكون الوحيد في عصري الذي يعرف الحقيقة في علم عويص فلست قليل الفخر بهِ » . وقد افاض العالم هيكل في حسبانهِ من روَّاد مذهب التطوُّر . ثم انهُ كان يشرف بنفسهِ على مسرح فيمار واخراج روايات شار فيهِ

هذا الشمول في حياة الرجل وفكره يجعله موضوع عناية كبيرة عند ابناء هذا العصر . ثم اذا كان قادراً ان يعمل كل شيء فانهُ كان قادراً ان يجعل عاطفته ميداناً لكل الانفعالات . ان حوادث غرامه التي كان يندفع فيها بحماسة الفتى الناشيء جانب مضيء من الآداب الالمانية ، لان الفتيات اللائي كنَّ موضوع حبه كنَّ كذلك امثلة يخلق منهنَّ بنات خياله . ومع ذلك كان متزناً رزيناً مالكاً لعنان نفسه سواء كان مع اسكافي او في مجلس نبوليون . قيل ان نبوليون مرَّ في ارفرت بعد انخذاله في معركة يانا فطلب ان يرى جوته ، فلما وقف هذا امامهُ في هيبة ووقار صاح نبوليون «انت رجل» ولما عاد نبوليون فارًّا من روسيا بعد ما تبدد شمل جيشه فيها لم ينسَ ان يبعث بتحيته الى جوته اذ مرَّ في ڤيمار

فجوته يحسب بحق آخر العقول العالمية التي استطاعت ان تتخذ كل افعال البشر وفروع معرفتهم ميداناً لها فتبرز فيهِ . لأن حياته وموته كانا على عتبة عصر اتسع فيهِ نطاق المعرفة اتساعاً جعل الاحاطة بفروعها امراً متعذراً على ذهن انساني

اما « فوست » روايتهُ الخالدة فرواية شعرية تمثيلية اشخاصها ليسوا من البشر ، بل من عالم خيالي . بطلها « فوست » عالم مفكر شديد التعطش الى ادراك ما لا يدرك يحاول بالعلم ان يطلع على اسرار الوجود فيرتدُّ خائباً شديد التشاؤم ويشتدُّ بهِ ذلك حتى يسح فريسة الشك والجحود ويرمز الى هذه الروح بالشيطان مفستوفيلس . وكاد فوست ينتحر فظهرت له الروح وقالت مالك وللعلم والفلسفة . كل هذا باطل لاخير فيهِ ، تعال اتبعني فأخوض بك غمرات الحياة تبلو حلوها ومرها فيقبل فيتخبط في عالم الشهوات اولاً ثم يخوض معترك السياسة للقيام بخدمة عامة ثم ينقلب داعية للفن اليوناني ولكن مفستوفيلس لا يزال قرينهُ يدفعهُ الى التحوُّل والتنقل حتى يبلغ المائة فلا يرى امامهُ الاَّ القبر فيقف على حافتهِ ولسان حاله يقول «لا يستحق الحياة والحرية الاَّ من يسعى ابداً في الحصول عليهما » وقد كانت حياة جوته ابلغ مثل على هذا القول حتى لقد قالت الانسكلوبيذيا البريطانية « ان آيتهُ الخالدة هي حياتهُ »

هذا هو الرجل الذي تحتفل المانيا بانقضاء مائة عام على وفاتهِ . وقد رأينا من حق القراء علينا ان نوفي هذا الرجل حقَّهُ من البحث فطلبنا الى الدكتور محمد عوض محمد أستاذ الجغرافية في كلية الآداب ومترجم «فوست» بالعربية ان يجعل جوته موضوع مقالٍ يتحف بهِ المقتطف ففعل . وكذلك أتحفنا الدكتور علي مظهر احد خريجي جامعات المانيا برسالة مسهبة سوف ننشرها في ثلاث اعداد متتالية